

ملاحح الخطاب الإشهاري وجمالته في فن المقامة.  
قراءة سيميائية تداولية في مقامات بديع الزمان الهمداني.  
د.نوال بومعزة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية قسنطينة

## مقدمة

تترأى نصوص تراثنا العربي القديم بكل تجلياتها، وهي تدعو الدارس إلى رحلة في عوالم إبداعاتها الأدبية بكل أنواعها، في مجال واسع وصدر رحب لإعادة قراءتها وفق آليات وإجراءات المناهج النقدية المعاصرة، التي لقيت - مؤخرًا - رواجًا في الساحة الأدبية والنقدية العالمية والعربية. وقد اخترت تطبيق آليات المنهجين السيميائي والتداولي في محاولة لقراءة أشهر فن نشري عرفه العرب، ألا وهو فن المقامة الذي تعبق منه رائحة التراث والأصالة والعبقرية العربية التي خلفت إبداعًا لغويًا يجمع بين الحركة باللون والصوت.

فمن قال أنّ العرب لم يعرفوا الخطاب الإشهاري؟ بل عرفوه وتفننوا في أساليبه وفن المقامة دليل على ذلك، فالهمداني سواء أكان متعمدا أم لا فقد مارس العملية الإشهارية في مقدمات مقاماته الخاصة. سنحاول من خلال هذه المداخلات التعرف على ملاحح الخطاب الإشهاري في فن المقامة، باستقراء نموذج من نماذجها معتمدين في ذلك على مناهج نصانية كالسيميائية والتداولية، وهل سيحيط هذا النوع من الدراسات بكل جوانب هذا النص التراثي القديم الذي ما زلنا نقرؤه، ونعيد قراءته مرات عدة، وفي كل قراءة تبرز لنا جملة من النقاط الخفية، التي يمكن كشفها لو امتلكننا الأدوات المنهجية الناجحة لذلك، فهي عودة إذن إلى التراث القديم وفق رؤية منهجية جديدة تحاول لفت الانتباه إلى أن العرب برعوا في كل المجالات، وخاصة الأدبية منها.

## 1- فن المقامة والخطاب الإشهاري.

المقامة «حكاية مسجعة مثقلة بالمحسنات البيانية، والفوائد اللغوية، واللطائف الأدبية والأحادي النحوية.. قوامها حيلة فكاهية يصطفها البطل وهو رجل واحد لا يتغير في كل مجموعة من المقامات كسبا للرزق أو احتيالا على العيش... يعتبر بديع الزمان الهمداني مؤسس فن المقامة، وقد سُمي بطل مقاماته أبا الفتح الإسكندري»<sup>(1)</sup>. والمقامة تعني المجلس، وفي تعاريف أخرى «المقامة حديث من شطحات الخيال أو دوامة الواقع اليومي في أسلوب مصنوع مسجوع تدو حول بطل أفاق أديب شحاذ يُحدث عنه وينشر روايته قد يلبس جبة البطل أحيانا، وغرض المقامة البعيد هو إظهار الاقتدار على مذاهب الكلام وموارده ومصادره في عظة بليغة تقلقل الدراهم، أي أكياسها أو نكتة أدبية طريفة أو نادرة أو شاردة لفظية...»<sup>(2)</sup>. ومقامات بديع الزمان قصيرة في الأغلب فصيحة وسهلة إلى جانب دعاباتها والمرح، وأسلوب التهكم في صيغها

1 - عبد الله حسن الذنبيات، فن المقامات من الهمداني للحريري، مجلة ألياف أدبية، 29 جوان 2009، ص 12.

2 - المرجع نفسه، ص 197.

ومعانيها. فصاحبها يُحسن عملية السرد والوصف الحسي، والتحليل، ويُحسن دراسة الطباع وتصوير مشاكل المجتمع وعرضها.

ونحاول من خلال هذه الدراسة التطبيقية تقديم هذه اللوحة التراثية مع إبراز طاقتها الإقناعية للفعل الإشهاري، وتأتي التداولية كمنهج في كونها تهتم بمختلف الأسئلة الجوهرية في الخطاب المقامي، كمن يتكلم؟ ما موضوع الحديث؟ بماذا؟ كيف؟ أين؟ ومتى؟ وهذه الأسئلة تعد جوهرية للبحث عن مواطن الإقناع في المقامة، مما يحدد ملامح الإشهار فيها، فالتداولية تتضافر مع السيميائية لتبعث في ظل الخطاب الإشهاري الذي يفتح آفاق التواصل وتحقيق المنفعة بين المرسل والمرسل إليه، وهو هدف الطرفين معا.

## 2- جماليات الخطاب الإشهاري في المقامة الأزادية<sup>(1)</sup> لبديع الزمان الهمداني.

تُقدّم المقامة الأزادية لوحة تراثية في غاية من الدقة والتصوير، وسنحاول من خلال هذه الوقفة التطبيقية القبض على ملامح الإشهار في المقامة، وكيفية تداول وظائفه.

إن مسحا سريعا للمستوى اللساني للمقامة الأزادية يكشف أن قوام فن المقامة كفن نثري عربي أصيل هي اللغة، مما يدفع بالمتلقي للرجوع إلى المعجم لشرح بعض مفرداته وفهمها، وهذا ما لمسناه أثناء تحليلنا لهذه المقامة، ونحو ذلك قوله ( الأزاد، قرضت، الإزار، تأبط، خرديق، يفتأ، التزنيق)، حيث يُذكر كم هائل من المفردات التي تصب في المعجم الغذائي، كذكر أنواع عدّة من الأطعمة والشراب، وكأن بالراوي عيسى بن هشام يقدم للقارئ العربي وغيره جملة من المواصفات لتلك الأطعمة، والهدف من ذلك تحديد حالة المشتري، وتحديد حالة المحتاج إليه.

هيمن هذا المعجم بنسبة كبيرة، لأنّ المقام استدعى ذلك كونه موجّه إلى نخبة معينة من الشعب، وهم المتصدقون على الفقراء كشخصية عيسى ابن هشام الذي رُقّ لحال أبي الفتح الإسكندري، وهو يظهر في هيئة متسوّل، حيث يعمل السجع الموجود على مستوى العبارات في المقامة على لفت انتباه السامع، والعمل على إيصال سحرها لدفع الصدقة من قبل المتصدق.

يعمل التداول على إحداث التواصل الفعّال الذي يعبر عن الغرض، ويُبلّغ المقصود بسهولة، وهو ما يُعرف عند علماء العرب القدامى بإصابة المعنى من أقرب مرمى، تقتضي التداولية كمنهج الإجابة عن جملة من الأسئلة الهامة التي تخص الثلاثية ( المرسل، الرسالة، المرسل إليه )، كمن يتكلم؟، ومع من يتكلم؟، وماذا يقول؟، وكيف يتكلم؟، وما مقاصده؟. من هنا فالتداولية تقوم على مفاهيم هامة كمفهوم الفعل، ومفهوم السياق، ومفهوم المقام، ومفهوم الإنجاز. ولو أسقطنا هذه المفاهيم على المقامة الأزادية نتحصل على الخطوات التالية في التحليل:

1 - بديع الزمان الهمداني، مقامات بديع الزمان الهمداني، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، 1965.

## أولاً: الخطاب ( الرسالة الإشهارية).

تمثل المقامة التي مجوزتنا نسيجاً مترابطاً من الملفوظات والقضايا والأفعال وفق إستراتيجية خطابية محكمة البناء. فالمقامة فن نشري قاسم، ضارب في جذور الأدب العربي له تأثير متواصل عبر الأزمنة، فالقارئ يلمس في المقامات ملمحاً من ملامح الإشهار المسموع، مادته الأساسية هي الكلمة التي تتضافر فيها جملة الألفاظ والعبارات والمعاني مما يحقق التواصل والتأثير في السامع. وعملية التأثير في المتلقي هي هدف الخطاب الإشهاري، بالرغم من أن النسق الأيقوني ( الصورة) هو المهيمن في الخطاب الإشهاري، إلا أن أغلب الأنماط الإشهارية تقوم على مجموعة من القواعد اللسانية والسيمائية يمكن ذكرها والتمثيل لها من خلال خطابنا المقامي الذي نحن بصدد دراسته، حيث يُوصف الخطاب الإشهاري بصفة عامة في كونه يعتمد جملاً بسيطة موجزة مكثفة من حيث الدلالة، تحمل فكرة رئيسية واحدة غالباً ما يودّ المرسل تبليغها إلى المرسل إليه في أحسن الظروف والأحوال.

إنّ ما يهّم الإشهاريّ من اللغة هو تبليغ خطابه بواسطتها، مهما يكن المستوى اللغوي المستعمل، فقد كون من اللغة الفصحى أو تتداخل الفصحى مع العامية. والمتأمل للمقامة الأزاوية يجد هيمنة اللغة العربية الفصحى، التي تُترجم الوسط الاجتماعي الذي تنتمي إليه وتوضح طبقاته المختلفة، فمن التاجر إلى الناسك المتعبد في المسجد إلى المتسوّل، وهذه طبيعة الحياة مبنية على أساس من التناقضات. جمعت الفصحى في المقامة بين أساليب متعدّدة مثل:

- الطلب « أبرز لي عن باطنك»؟<sup>(1)</sup>
- الاستفهام: ويحك أي داهية أنت ؟<sup>(2)</sup>
- الخبر: رجل قد لفّ رأسه ببرقع. <sup>(3)</sup>
- الدعاء والتضرّع: « يا رازق، يا من أعاني»<sup>(4)</sup>

تتماشى هذه الأساليب اللغوية مع ما يقتضيه الخطاب المقامي الإشهاري في التعبير عن نفسه والتقرب من المتلقي شيئاً فشيئاً، واستدراجه لتقبّل الرسالة بسهولة. ذلك أن « اللقطة الإشهارية لا تتضمن الإكراه بل تتركنا أحراراً لقول لا، فنحن في نظرها لسنا مستسلمين بل شركاء مسترخين ولاعبين وأطراف متورطة معها بإصرار مسبق»<sup>(5)</sup>.

1- المصدر السابق، ص 10.

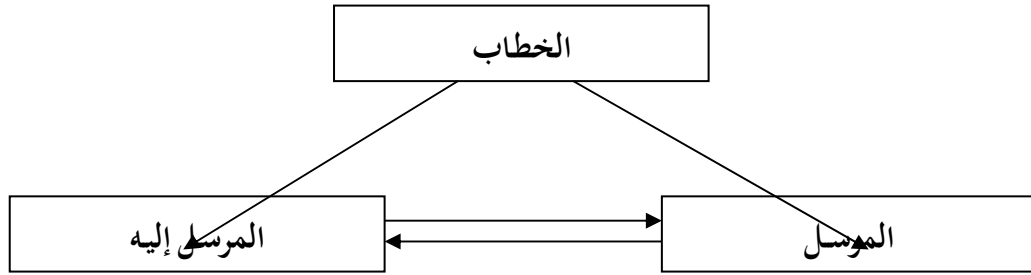
2- المصدر نفسه، ص 10.

3- المصدر نفسه، ص 10.

4- المصدر نفسه، ص 10.

5- قدور عبد الله الثاني، مغامرة سيميائية في أشهر الإرساليات البصرية في العالم، دار المغرب للنشر والتوزيع، ص 13.

بالتالي مثل حضور هذه الأساليب اللغوية وغيرها في المقامة الأزادية سببا كافيا يجعلها أكثر تقبلا من طرف المرسل إليه، أين يحدث العقد بين طرفي الخطاب التالي:



### ثانيا: قناة التبليغ.

تمت عملية تلقي المقامة الأزادية بواسطة القراءة التي استدرجتها عملية الكتابة، فالقراءة حسب رولان بارط فعل أشبه بالكتابة، والكتابة فعل أشبه بالقراءة، وصلت مقامات الهمداني مدونة ساهم في جمعها جملة من الدارسين والنقاد، وردت مليئة بالأساليب اللغوية التي تعمل على جعل القارئ يتأثر ويستجيب، نظرا لتمييز بنيتها اللسانية بجملة من الخصائص أبرزها:

- بساطة الجمل وكثافة الدلالة مثل: «أناف الفواكه وصنفها، أنواع الرطب وصنفها، فقبضت من كل شيئا جوده، بسط يده، احتضن عياله..» إلى غير ذلك من الجمل البسيطة في تركيبها، والتي لا تقف دلالتها عند قراءة واحدة.

- - تداخل المستويات اللغوية والخطابات

يظهر في المقامة تداخل قوي بين السرد والشعري، الأمر الذي شكل ظاهرة فريدة من نوعها تعمل على خلق جمالية في عملية التلقي، حيث كَوّن المتسوّل صورة تفيض حركية وانفعالا يظهر في ما ورد في المقامة « يقول بصوت يدفع الضعف في صدر هو الحرص في ظهره»<sup>(1)</sup>، ثم يتم ذكر أبيات شعرية:

ويلي على كفين من سويق أو شحمة تضرب بالدقيق  
 أو قصعة تملأ من خرديق يفثأ عَنَّا سطوات الرّيق  
 يُقيمنا عن منهج الطريق يا رازق الثروة بعد الضيق  
 سهل على كفّ فتى لبيق ذي نسب في مجده عريق  
 يهدي إلينا قدم التوفيق ينقذ عيشي من يد الترنيق

تعمل هذه الأبيات الشعرية على شحن طاقة تعبيرية قصوى في وصف المتسول لحالته وحالة عياله. فالأبيات الشعرية دفعت بعيسى بن هشام لتقديم الصدقة متأثرا بالوصف الذي ورد فيها.

<sup>1</sup> - بديع الزمان الهمداني، مقامات بديع الزمان الهمداني، ص 11.

## - براعة الانتقال من السرد إلى الوصف.

تتضح هذه الخاصية من خلال المقدمة الاستهلالية للمقامة، حيث بدأ الراوي بسرد الحدث في قوله: «حدثنا عيسى ابن هشام قال: «كنت ببغداد وقت الأزد، فخرجت أعتام، من أنواعه لا يتباعهن فسرت غير بعيد إلى رجل قد أخذ أصناف الفواكه وصنفها..» ثم ينتقل الراوي إلى الوصف بطريقة سليمة وذكية «أخذت عيناى رجل قد لفّ رأسه ببرقع حياء، ونصب جسده وبسط يده، واحتضن عياله وتأبط أطفاله..».

## السجع وتكرار العبارات.

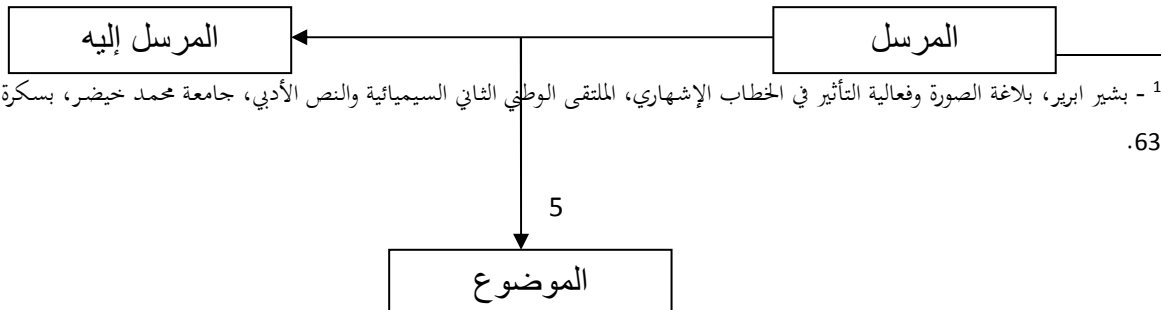
تحتل المقامة الصدارة في مجال توظيف السجع والتكرار، فهي حكاية عربية مسجوعة [صنفها- صنفها، الإزار- الأوزار، عياله- أطفاله، صدره- ظهره، الدقيق- الطريق، الريق- الضيق] . لقد تميّز الهمداني في توظيف هذا الأسلوب عن غيره، وهو بهذا يريد تحقيق الفرادة والتميّز من خلال لفت الانتباه لهذا الجنس النثري الذي يأخذ من الشعر والنثر.

## ثالثا: وضع الخطاب.

يعرّف بنفنيست الخطاب على أنّه كل مقول يفترض متكلما ومستمعا في نية الأول التأثير في الثاني بصورة ما. إذا فالعلاقة وطيدة في الخطاب الاشهاري بين المرسل والمرسل إليه، بحيث من الضروري أن يعيشا الأوضاع ذاتها. ففي المقامة الأزدية يتعلق المرسل الراوي بالمرسل إليه المتسوّل (أبي الفتح الإسكندري) في مجلس واحد. كما أنّ المستوى الثقافي رابط قوي بينهما، أي في عملية نظم الأبيات من طرف أبي الفتح، وفهم مقصدها من قبل عيسى ابن هشام. وفي مقامات الهمداني يكون المكدي هو المتفوّق من ناحية العلم والدين ومستواه المعيشي المتدهور هو الذي يدفع به إلى وضع حيل وخطط بدهاء وحيلة لنيل المال والثياب من أهل المجلس، بعد أن يكسب عطفهم بالشعر والكلام المنمّق، والأسلوب الفكاهي الساخر في الكثير من الأحيان . إذ تسهم الصورة والصوت واللون والحركة والموسيقى والديكور في تكوين العلامة الإشهارية في المقامة. تعمل هذه الخاصيات على إعادة تثبيت المعنى اللساني، وتمنحه حركية مشهدية نامية.

## رابعا: المرسل.

يُعدّ المرسل في الخطاب المقامي فاعل أساسي، لأنه « المسئول الأول عن رسم خطة التأثير ثم توجيهها الوجهة الإقناعية المناسبة قصد لفت انتباه المرسل إليه، واستدراجه شيئا فشيئا فهو الذي يُحدث الخطاب، ويعمل على شحنه بما يحتاجه من مادة إشهارية لازمة بالنظر إلى الموضوع الذي يدور حوله الإشهار ثم يقوم بإرساله نحو المتلقي»<sup>(1)</sup>. ومن خلال المقامة يظهر المرسل في الشكل التالي:



عيسى ابن هشام (الراوي)

القارئ

أبو الفتح الإسكندري

### كسب الرزق بطرق الاحتيال

لو تتبعنا مسار الحكمي، نجد أنّ المرسل اعتمد طريقة التشهير في عرض الموضوع، ووصف الأشياء المحيطة به «كنت ببغداد وقت الأزد»، فهو تشهير بالمكان وما يحتويه من أصناف الفواكه، ببغداد أرض ثرية إلى درجة أنّ عملية اختيار أنواع الفواكه تتم دون تدخل من البائع ويظهر ذلك في قوله: " فقبضت من كل شيء أحسنه، وقرضت من كل نوع أجوده"، أمّا بطل المقامة أبو الفتح الإسكندري فقد أشهر بجوعه واحتياجه بأدق العبارات، وأرقّ التعابير التي تجذب اهتمام القارئ وتعمل على تحقيق استجابة من يستعطفه.

### خامسا: المرسل إليه

ويُعدّ بدوره عنصرا أساسيا في العملية الإشهاري، إذ يعمل على إفهام المرسل إليه بجدوى المنتج وأهميته بأية طريقة، فيقدم على استهلاكه، ويحقق الوظيفة الإفهامية، حيث تتوجه المقامة على غرار الفنون الأدبية الأخرى إلى القارئ عبر مختلف العصور، والرسالة الموجهة إليه تكمن في التحذير من خداع الآخرين ونفاقهم.

### سادسا: المقام

إنّ العلاقة بين المرسل والمرسل إليه لا تتحدّد اعتباريا، وإنما تتم بحسب ما يقتضيه المقام، وأحوال الخطاب، يتمثل المقام في المقامة الأزادية في كونها أنجزت في سياق تاريخي واجتماعي ونفسي دال على خصوصيات المجتمع البغدادي. فقد ظهرت هذه المقامة وغيرها من مقامات الهمداني في العصر العباسي، أين صورت طريقة العيش، ونفسي أمراض اجتماعية في المجتمع العربي: كالخداع والاحتيال، وطرق الكسب الحرام التي ما هي إلا نتيجة لتفاهم الفقر والبؤس والاحتياج.

ومحصول الحديث، فالدراسة التي تطرقنا إليها تعد من المباحث الأدبية والنقدية الجديدة، التي تحاول تطبيق آليات مناهج نقدية جديدة تقرأ ذلك الكمّ الهائل من النصوص التي يزرخ بها التراث العربي، الذي مازال ينتظر البحث والتنقيب.